



# العقل العربي 71

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

## الفصل السادس عشر التحليل النفسي للتغريب

### 8. كراهية الغرب

علق الدارسون الغربيون للعالم العربي مرارا وتكرارا على الكراهية العنيفة التي يشعر بها العرب تجاه الغرب: فكتب ويلفريد كانتويل سميث في منتصف خمسينيات القرن العشرين: «معظم الغربيين ليست لديهم أية فكرة عن مقدار عمق وعنفا الكراهية التي تمتلك العرب الذين يمرون بحالة التحديت، وبالأخص تجاه الغرب»<sup>1</sup>. وبعد هذا القول بعدة سنوات أورد برنارد لويس ملاحظة لا تكاد تختلف عن الملاحظة السابقة، وذلك بالحديث عن «المزاج والرغبة التي وحدت معظم العرب إن لم يكن كلهم» عام 1955، ويتمثل ذلك، بحسب ما وجد لويس، في «النفور من الغرب، والرغبة في إغاضته وإذلاله»، وهو ما كان له «تعبير مثير ومرضٍ» في صفقة الأسلحة الروسية التي وقعها عبدالناصر عام 1955: «ففي العالم البدائي الذي تنتشر فيه الأساطير والصور كان الغرب منبععا لكل الشرور، بل كان هو الشر نفسه»، وكل ذلك، كما استنتج لويس، لم يؤدِّ إلى «مشاكل حقيقية من خلال ما تسبب به من اضطراب اقتصادي واجتماعي وسياسي» فحسب، وإنما نشأت عنه «عقدة نقص ثقافية»<sup>2</sup>.

لم تتناول تفسيرات لويس مسألة أساسية لا محالة من أن تخطر على بال من يدرس العلاقة بين الغرب وبقية أنحاء العالم، وهي: من بين جميع الأمم التي وجدت نفسها في وضع مشابه أمام الغرب، لماذا تكون كراهية الغرب وما يرتبط بها من «عقدة النقص الثقافية» تبدو للعيان بشكلها الأكثر صراحة عند العرب بالأخص؟

(1) ويلفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith): الإسلام في العصر الحديث: ص159.

(2) برنارد لويس (Bernard Lewis): الشرق الأوسط والغرب: ص133-136.

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

من المؤكد أن اليابانيين يدينون للغرب ثقافيا وتكنولوجيا بمثل دين العرب على الأقل. وفضلا عن ذلك. جعلهم الغرب يحسون في الحرب العالمية الثانية بتفوقه التسلحي بطريقة فظيعة. ثم تعرضت بلادهم للاحتلال والحكم من قبل أمريكا لعدد من السنوات. ومع ذلك لا يوجد حتى الآن ما يشير إلى أن اليابانيين يحملون شعورا يقترب. بأي شكل من الأشكال. من كراهية العرب للغرب وما يحملونه من عقدة نقص ثقافية. وبعيدا عن اليابان. فإن الدول الأفريقية المتعددة التي كانت في الأمس القريب مستعمرات فرنسية بقي المنحى الثقافي فيها. بعد الاستقلال. فرنسيا بكامله؛ ولم يلاحظ في علاقتهم مع الغرب عموما. وفرنسا خصوصا. كراهية للغرب. أو عقدة نقص ثقافية. تقارن بما لدى العرب. ولاحظ أيضا الحالة الهندية؛ فشعوب شبه القارة الهندية كانت تحت الحكم البريطاني طوال قرنين من الزمان. وكانت علاقتهم مع بريطانيا إبان ذلك شبيه بعلاقة الدول العربية مع بريطانيا أو فرنسا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. أو قبل ذلك في دول شمال أفريقيا ومصر. وحتى نيلها الاستقلال؛ ومع ذلك يجد المرء في الهند وباكستان المسلمة قدرا من الكراهية تجاه الغرب يقل عن مثيله الذي يتميز به العرب؛ كما إن الهند شعرت بالغضب إزاء تقسيم شبه القارة وتأسيس الدولة الباكستانية المستقلة بنفس القدر الذي شعر به العرب في سوريا والعراق ومصر إزاء تقسيم فلسطين وتأسيس إسرائيل في قسم منها. لكن هذا الخلاف مع بريطانيا والغرب لم يؤدّ إلى كراهية أو يخلق عقدة نقص ثقافية عند الهنود.

إذن. لدينا عدد من الدول التي تعرضت للاستعمار في السابق. وجميعها ذات تجارب شديدة الشبه مع القوى الغربية. وحالها جميعا متشابه في اقتحام الثقافة الغربية لها وهيمنتها (وحتى تسيدها). وإن لم يبد العرب مما يشعرون به غير كراهية الغرب وعقدة النقص الثقافية اللتان لاحظهما المراقبون عربا وغربيين. فمن الواضح أن سبب ذلك لا يتمثل بما خبره العرب من الغرب أثناء الفترة الاستعمارية وبعدها. وإنما بمجموعة مختلفة من العوامل.

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

ينبغي البحث عن تلك العوامل في نطاقين: الأول هو الماضي ما قبل الاستعماري، أو بعبارة أدق: الهيئة التي يعيش عليها الماضي ما قبل الاستعماري في وعي شعوب ما بعد الاستعمار. والنطاق الثاني هو شخصيتهم النمطية المحددة. وهذان النطاقان مرتبطان طبعا؛ فالماضي ينظر إليه من منظور الشخصية النمطية. ومن هنا فإن ما تحتله الشجاعة والعدوانية والقدرة على القتال من منزلة مهمة في الشخصية النمطية يجعل تلك النظرة تؤكد على هذه الصفات في التاريخ الوطني. ومن الجهة الأخرى، يلعب الوعي بالماضي دورا أساسيا في تشكيل الشخصية النمطية؛ فإذا كان الماضي يُعرف، أو يُعتقد، بأنه زمن الانتصارات العظيمة، فمن شأن ذلك أن يترك أثرا في الشخصية النمطية عبر توجيهها إلى محاكاة طرق الأسلاف، وذلك يؤدي إلى تعزيز صفات معينة في الشخصية كالعدوانية والشجاعة.

بتطبيق هذه الاعتبارات على العلاقة بين شعوب ما بعد الاستعمار وبين الغرب لا نجد من بينهم غير العرب ممن أسهموا في الماضي بشكل مباشر ومميز جدا في التطور الثقافي للغرب. والمتعلمون من العرب، والذين يزداد عددهم عاما بعد عام، يعلمون أنه لا تفصلهم غير قرون معدودة عن زمن كانوا فيه متفوقين على الغرب في كافة مناحي التطور الثقافي الذي يفتخر به الغرب في العصر الحالي. وفي تعلقهم المفهوم بقوميتهم، يبالغ العديد منهم في تصوير الدور الذي لعبته الثقافة العربية في تهيئة الأرضية لانطلاق الموجة الأوروبية التي بدأت بحركة النهضة. ويعبر ويلفريد كانتويل سميث عن ذلك بقوله: «يشعر العرب بحميمية أكبر في المجد المبكر للعظمة العربية الإسلامية الماضية، مقارنة بالمسلمين الآخرين. ويشعرون بالحنين إلى الماضي على نحو أكثر انشدادا. إن إحساس العرب بسناء الماضي ليس له نظير». ويقول أيضا: «الإسلام العربي... لا يهتم، ويغفل عمليا، بما حدث لعظمة الإسلام بعد النكبة العربية. فمع النكبة (سقوط بغداد عام 1258 أو الفتح التركي لمصر عام 1517) انتهى التاريخ الإسلامي فعليا»<sup>1</sup>. وبهذا يكون

(1) ويلفريد كانتويل سميث: المصدر السابق، ص 94-95.

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

الغرب حديث النعمة على الصعيد الثقافي. ويكون اضطرار العرب إلى التعلم منه أمرا يقترب من منزلة العار.

أما العامل الثاني فهو في جزء منه يتعلق بالمعرفة والوعي التاريخي. فعلى الرغم من أن بعض المفكرين العرب يتألمون مما يعتبرونه تشويها غربيا للتاريخ العربي. وأن العرب حصلوا على المعلومات المتعلقة بماضيهم نتيجة للجهود الغربية في الأساس. فإن الحقيقة تقول أنه من بين كل الأمم التي تعرضت للاستعمار: وحدهم العرب الذين يمتلكون تاريخا طويلا حافلا بالتواصل مع الغرب. ووحدهم الذين اشتبكوا معه في المعارك مرارا وتكرارا فهزموا وأخضعوه إلى سلطتهم. حدث ذلك في اسبانيا مع أوائل القرن الثامن. وصولا إلى القرن الثامن عشر وانتقال القيادة في «دار الإسلام» إلى تركيا حيث كان جنوب وسط أوروبا إلى هنغاريا لا يزال تحت السيطرة الإسلامية. وينبغي أن يلاحظ هنا أن النظرة التاريخية العربية. في ما يخص المواجهة مع الغرب. تعتبر تركيا امتدادا للعالم العربي وأن ما ألحقته من هزائم بأوروبا المسيحية بمثابة انتصارات للإسلام الذي كان العرب وما زالوا يعدون مؤسسيه وناشريه ومركزه. حتى وإن أصبحت تركيا يده الضاربة. وحسب رأي بعض الكتاب العرب المعاصرين حصلت انتصارات الماضي على الإلهام من العقيدة الإسلامية: حيث يقول محمد قطب في كتابه (شبهات حول الإسلام) أن العرب لو استرجعوا عقيدتهم المنضبطة. فلسوف يهزمون. كما فعل المسلمون الأوائل. الامبراطوريات العظمى في العالم. وهكذا قد تكون الهزيمة والهيمنة من خصم كان في السابق أضعف من المسلمين أكثر إيلا ما للعرب مقارنة بالشعوب التي كان اتصالها بالغرب عبر التاريخ تغلب عليه صفة خضوعها لتفوقه وقوته العسكرية.

إن الاعتماد العاطفي للعرب على ماضيهم يؤازره رفضهم للغرب وما يمثله. وهذا الرفض كان السبب...

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

في إصرار العرب على ما يفترضونه من شخصية حصرية: وفي المقابل: كلما عزز العربي من الميل المرضي إلى البحث في ذاته (أي في ماضيه) عن الأساس الجوهري لصحته الحالية وتقرير مصيره في المستقبل. كلما تضاءلت فرص خروجه من زنزانته الضيقة التي هي ذاته. وازدادت عدوانيته تجاه أي شكل من الإبداع يحمل روحا غربية.<sup>1</sup>

والعامل الثالث هو الدين: وفي الواقع. يبلغ العامل الديني أهمية في تكوين الموقف العربي المعادي للغرب إلى درجة تجعل من المفترض به أن يحتل المرتبة الأولى ضمن العوامل المذكورة. لكن الدين نفسه (الإسلام) تعنتقه دول أخرى لا تبدي موقفا حيال الغرب يقترب من الموقف العربي العدواني بأي شكل من الأشكال. ومن هذا الاختلاف يمكن للمرء أن يستنتج أن الإسلام وحده. ودون وعي بماض جرى فيه تفوق ثقافي وعسكري على الغرب. لا يشكل حافزا كافيا لنشوء كراهية شديدة للغرب عند الأمم المستعمرة سابقا. و فقط عندما يقترب الاقتناع بامتلاك المرء للدين الحقيقي الوحيد (والذي يتشاطره جميع المسلمين) مع المعرفة بالتفوق الثقافي والعسكري في الماضي (وهو أمر خاص بالعرب). ينتج عن هذا المركب تقوية متبادلة للشعور المناهض للغرب بالصورة التي نجدها عند العرب. وعند العرب وحدهم يمكن أن ينشأ شعور بأن دينهم (الإسلام) قد ساعدهم في قرون الماضي المجيدة على تحقيق تفوق ثقافي وعسكري على الغرب. ولهذا يكون على العرب وحدهم أن يواجهوا الواقع المر لخسارتهم ذلك التفوق في قرون الحاضر. ونظرا لما للعرب من إيمان بالقضاء والقدر. فإن هذا التحول في مركز التفوق لا يمكن أن يعتبر عندهم غير حدث معد مسبقا يلقي بدوره ظلال الشك على ما لهم من قيمة في اعتباراتهم هم. فبما أن المسلم التقليدي لا يمكنه أن يتخيل نفسه يلوم الرب أو حتى يسأله. فإن مسؤولية ذلك التحول تلقى على عاتق العرب أنفسهم. وبالأخص في ما يخص الذنوب الأخلاقية

(1) فايز صايغ: فهم العقل العربي: ص 35-36.

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

والدينية: أو قد تلقى المسؤولية على عاتق الغرب على نحو غير منطقي. ولكنه عاطفي وأكثر إرضاء للنفوس.

إن أكثر ما يكون عرضة للاستياء هو الصف الطويل من المظاهر الخارجية للتفوق الغربي في كافة المجالات المادية والاقتصادية والتكنولوجية والتنظيمية. فهذه المنجزات التي يعرضها الغرب، أو يتفاخر بها بحسب رأي العرب، تمنحه قوة متفوقة؛ وهذا هو بالأخص ما يزعج العقل العربي لأنه تكيف مع اعتبار كافة تلك الجوانب أمورا ثانوية بالنسبة إلى القيم الحقيقية للأخلاق والدين التي يؤمنون بكل إخلاص أن الغرب بحاجة شديدة إليها. وبهذا يكون أدنى درجة من العرب المسلمين. وعندما يكتشفون أنهم عاجزون. على الرغم من ذلك، عن تقليد الغرب في كل الأمور التي يعدها الغرب مهمة، وأنهم بذلك يتبنون لإراديا سلم القيم الذي يعتقدون أن الغرب يلتزم به، فإن استيائهم يتحول إلى كراهية.

يوجد عدد من الخصائص الأخرى، المألوفة حاليا، في الشخصية العربية النمطية التي تجعل العرب ميالين إلى موقف يعادي الغرب والتي لا توجد في الشخصيات النمطية للشعوب المستعمرة سابقا، وإن وجدت فإلى درجة ضئيلة جدا. ومن هذه الخصائص: الميل إلى المبالغة الذي لا يقود العرب إلى تأكيد وتكرار ما يشعرون به تجاه الغرب فحسب، وإنما يقوم بتضخيم هذا الشعور. ومنها أيضا: الإحساس بالهامشية الذي لا يسمح للعربي أبدا أن يتحرر من أسر البيئة والثقافة التقليدية، بنفس الشدة التي تجعل من المستحيل على الهندي المتعلم في بريطانيا أو الكاهن الياباني أن يتجاهل الثقافة الغربية. إن هامشية العربي تتسبب له دائما بالإزعاج الذي يتحول أحيانا إلى نوع حاد جدا يلقي مسؤوليته على الغرب بقصد أو بدونه. ويتصل بالهامشية على نحو وثيق ازدواجية العربي تجاه كل من ثقافته التقليدية وثقافة الغرب الحديثة، الأمر الذي يفاقم كراهيته لثقافة الغرب كلما أصبح مشدودا إليها أكثر. أضف إلى تلك العوامل حماسه الشديد للسمعة، وهو ما يخلق لديه شعورا بالتوجس لا يمكن الخلاص منه، وذلك حينما يشعر أن تقليده للغرب يحط من شأنه، وبما أنه غير قادر عن التوقف عن تقليد الغرب، تجده يشعر بالكراهية تجاه الغرب

## الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

بسبب إغرائه له وإنزاله منزلة شائنة. وإلى جميع ذلك يجب أن يضاف ميل العرب إلى تحميل الآخرين مسؤولية إخفاقاتهم وعجزهم. وبما أن الغرب كبش الفداء الجاهز دائما. فعليه أن يتحمل أكبر قدر من المسؤولية. وهذا يستتبعه حتما أكبر قدر من الكراهية.

لقد تكلمنا في ما سبق عن الأسس النفسية لكراهية العرب تجاه الغرب. أما عقدة النقص الثقافية التي يبديها العرب في علاقتهم مع الغرب فيمكن تفسيرها من خلال الإشارة إلى وجهها الآخر: الازدواجية التي يتصف بها موقف العرب من الغرب. فإذا كانت كراهيتهم للغرب تجسيدا للوجه السلبي لهذه الازدواجية. فإن عقدة النقص الثقافية محصلة للوجه الإيجابي. وبما أنهم نادرا ما يعترفون «بمحببة» الثقافة الغربية فإنها تمارس عليهم إغراء لا يقاوم لأنها تكون حاوية على كثير مما يرغبون به حالما يطلعون على وجودها. إن مجرد وجود الغرب. بكل الإغراءات التي تقدمها حضارته. وكل القيم الجديدة التي يقدمها. وكل التحسينات الفريدة التي يدخلها إلى كافة مجالات الحياة. هو ما يؤدي إلى نشوء عقدة النقص الثقافية في العالم العربي: يقول ويلفريد كانتويل سميث:

إن سبب ضعف العرب هو المقاييس الغربية. فالمعايير المستوردة هي التي أدت إلى تقويض أفتهم. إن الهزيمة على يد قوة متفوقة لا يحد من حرية المرء فحسب. وإنما يظهر له عجزه أو يذكره به.<sup>1</sup>

والكتاب العرب عموما يترددون في الكلام حول كراهية العرب للغرب. ويفضلون عوضا عن ذلك أن يعددوا ويحللوا العوامل التي تخلق لدى العرب معارضة للنفوذ الغربي. وقد جمع ولخص ديسبارمييه (J. Desparmet) مجموعة من تفسيرات الكتاب العرب حول عدائية العرب تجاه الغرب. ونشرها عام 1932. وبحسب ما جاء في كتابه. فإن الأساس الجوهري لكل الاعتراضات على الغرب تكمن في «التحمس» أو «الغيرة» الدينية التي تلهب العربي المسلم. والتي يشتق ويستنتج منها كافة أنواع الاعتراضات الأخرى.

(1) ويلفريد كانتويل سميث: المصدر السابق: ص 99.